



ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: <https://eduj.uowasit.edu.iq>Assi.Teach. Bahaa El
Din Tarish DaoudProf. Dr. Ismail
Khalbas Hammadi*Wasit University/
College of Education
for Human Sciences

Email:

Bahaadeen588@gmail.com
07801940482

Keywords:

Intent, Poetry of
imprisonment and
captivity, Study,
Pragmatic

Article info

Article history:

Received 1. July.2022

Accepted 20. July.2022

Published 1. Aug.2022

**B Intentionality in the poetry of pre-Islamic prisons and Captivity:
A pragmatic study****A B S T R A C T**

Research and studies that dealt with the pragmatic approach and sought to reveal its characteristics resorted to the use of specific literary forms, such as theatrical discourse; Because of its techniques that make it somewhat closer to everyday discourse, which I found pragmatics to study, describing it as (the study of language in use) according to the most famous definition of it.

As for our research, it was the use of pragmatism to reveal the implications of the poetic discourse of prisoners and jailers and what was said about them alike; as it represents an interactive discourse of a dialogical nature in most cases.

It is well known that pragmatism is divided into many sections, but we have chosen (intentionality); as it constitutes an important section linked with the rest of the sections.

The most important problem that the research deals with remains: the attempt of the pragmatic approach with poetic texts.

© 2022 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: <https://doi.org/10.31185/eduj.Vol48.Iss3.3203>

المقصديّة في شعر السجون والأسر الجاهليّ: دراسة تداوليّة

م.م. بهاء الدين طارش داود أ.د. إسماعيل خلباص حمادي

جامعة واسط / كلية التربية للعلوم الإنسانية

الملخص

لجأت البحوث والدراسات التي تناولت المنهج التداولي والتي سعت إلى كشف خصائصها إلى الاستعانة بأشكال أدبية محددة، مثل الخطاب المسرحي؛ لما فيه من تقنيات تجعله إلى حد ما أقرب للخطاب اليومي، الذي وجدت التداولية لدراسته، بوصفها (دراسة اللغة في الاستعمال) حسب أشهر تعريف لها. وأمّا في بحثنا هذا فكانت الاستعانة بالتداولية للكشف عن مضمّرات الخطاب الشعري للسجناء والسجانين وما قيل فيهما على حد سواء؛ كونه يمثل خطاباً تفاعلياً وذا طبيعة حوارية في أغلب الأحيان. ومما لا يخفى على أحد تشعب التداولية إلى أقسام عديدة، غير أننا اخترنا (المقصديّة)؛ كونه يشكّل قسماً مهماً له ارتباط مع باقي الأقسام.

وتبقى أهم مشكلة يعالجها البحث هي: محاولة المقاربة التداولية مع النصوص الشعرية.
الكلمات المفتاحية: المقصدية ، شعر السجون والأسر ، دراسة، التداولية.

المقدمة:

استعمل الإنسان اللغة للتواصل مع الآخر لبيان قصده، وتحقيق مراده، غير أن أهمية اللغة تتعدى وظيفة الإخبار، إلى إنجاز أعمال لا يمكن إنجازها من دونها، فما يتم التبادل به ليس اللغة على وفق مصطلح (دي سوسير)، بل الخطاب الذي يستلهم المعنى من الخارج، وبوساطته يُنقل الكلام من الدلالة على الحدث المجرد من الزمن إلى الدلالة على الاسمية، فأصبح في عرف الأصوليين يدل على ما خوطب به، وهو الكلام (ينظر: حمادي، ١٩٩٤، ٢١).

ويُعد القصد بمعناه المعجمي عنصراً مهماً من عناصر التخاطب في النصوص التواصلية والإعلامية والشرعية والقانونية والسياسية؛ كون الطابع القصدى ينظمها جميعاً، والاهتمام به يحيل لزاماً على الاهتمام بالمتكلم. ويعد عنصراً فاعلاً في تضمين المعنى في الخطاب من جهة، وفي تأويل المخاطب لها، من جهة أخرى؛ إذ عليه يتوقف التأويل خاصة إذا كنا نقصد أكثر مما تدل عليه دلالات الكلمات والجمل.

القصدية أو المقصدية:

إنَّ المقصدية، أو القصدية محور من محاور التداولية؛ إذ تتناول الدراسات التداولية مقصدية النص باهتمام بالغ وتدرس أبعاد العملية التواصلية؛ لإدراك المبادئ التي توجه المتكلم لحظة إنتاج الخطاب، بما يضمن نجاح تقديم المعطيات التي يرغب بتقديمها، من جهة، وتساعد المخاطب على إدراك هذه المعطيات ومعرفتها من جهة ثانية.

وأكثر من ذلك أنَّ البعض من الدارسين قد قصرَ التداولية على معرفة القصد، إذ جاء في أحد تعريفاتها: "التداولية فرع من علم اللغة يبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم، أو هو دراسة معنى المتكلم" (نحلة، ٢٠١١، ١٣)، فبيان القصد من مرتكزات فهم الخطاب، بوصفه جزءاً من سياق النص الشعري الذي لا يمكن إلا أن يكون نسبياً؛ فالشعر ليس وحدةً "متجانسة في كل زمان وفي كل مكان، فإذا نظرنا إلى النصوص الشعرية العربية القديمة ... وجدنا أنها لا تروي النص معزولاً عن محيط إنتاجه، بل تضع كلَّ نص، مقطوعة كان أم قصيدة، في سياقه حتى أن النصوص تبدو أحياناً توَّرخ لأحداث" (خطابي، ١٩٩١، ٢٩٧-٢٩٨)، فيما تغيبُ هذه السمة عن النصوص الشعرية الحديثة إلى حدِّ ما. والعناصر الأساسية التي تشكل سياق الخطاب/ النص بحسب تصنيف هايمس، هي: "المتكلم، والمخاطب، والمشاركون، والموضوع، والقناة، والمقام، والسنن، وجنس الرسالة، والحدث، والمقصد"، أو الاكتفاء بمعرفة "هوية المتكلم والمتلقي، والإطار الزمني والمكاني للحدث اللغوي" (براون و يول، ١٩٩٧، ٣٥).

وترتكز العملية القصدية التواصلية على محوري المرسل والمتلقي، فيسعى المتكلم إلى بلوغ هدف محدد من خلال قصد كلامه، ويبحث المتلقي في خطاب المتكلم عن مراده، ولإتمام العملية التواصلية يختار المتكلم وسائل لغوية مناسبة تستوعب قصده، وهي ما أصبح يُطلق عليها (إستراتيجيات الخطاب)، التي هي: "الطرائق التي توصل مقاصد المرسل وتعين على إدارة دفة الحديث أي حديث، وبها يكمن توافق الخطاب، أيًا كان نوعه، مع السياق سواء أكان السياق سياقاً عاماً أم سياقاً خاصاً" (الشهري، ٢٠٠٤، ix). والإستراتيجيات اللغوية كثيرة ومتعددة يخضع تصنيفها لمعايير محددة؛ ولأنها تعنى بدراسة اللغة في الاستعمال كان المنهج التداولي أفدر من غيره على كشفها، فالخطاب المنجز هو خطابٌ مخطَّط له.

لقد كانت المقصدية أو القصدية أو القصد من بين أهم ما ركز عليه الباحثون التداوليون، وهو ما جعلهم يطرحون أسئلة مثل: هل يمكن وجود خطاب دون مقاصد؟ هل نستطيع بناء نص دون مقصد؟ ما علاقة الخطاب بمقاصد الإنسان؟ هل تُعد القصدية عنصراً أساسياً في إنتاج الخطاب؟ وكيف يعبر المتكلم عن مقاصده باستعمال اللغة؟ وكيف يدرك المتلقي، بوصفه طرفاً في عملية التخاطب، تلك المقاصد وفهمها؟

وأما القصدية بالمنظور الفلسفي، فهي: "توجه الوعي نحو موضوعه، أو العلاقة التي تربط الوعي بمضمون ظاهرة ما" (بونففة، ٢٠١١، ٩٥). وقد شغل مصطلح القصدية الأبحاث والدراسات الحديثة في مجال تحليل الخطاب وفهم الكلام، وقد تناولته الفلاسفة في نظرية استعمال اللغة، فدرسه (أوستن) ومن بعده (سيرل) على أن هذا المصطلح ظهر مفهوماً فلسفياً في الفلسفة الظاهرية (الفيولوجيا)، على يد (إدموند هوسرل)، حين ذهب يبحث عن العلاقة بين العقل والموجودات فوجد أن الوعي لا يكون مستقلاً ولكنه وعي بشيء ما، فكان الطابع القصد للوعي، أي العلاقة بين الوعي والوجود، فالوعي يحيل إلى موضوع معين، وأفعاله لا تكون واعية إلا عندما تندمج مع موضوعاتها، فالعلاقة بين الوعي والموضوعات علاقة ارتباط مباشر، وأما القصدية فلا تتحقق إلا باتحاد الذاتي والموضوعي (بنظر: بونففة، ٢٠١١، ٩٥-٩٦) وأفرزت هذه الفلسفة عدة نظريات لاحقة، أشهرها: نظرية أفعال الكلام لأوستن وسيرل، ونظرية الاستلزام الحوارية لجرايس في بحثه الموسوم (المنطق والحوار)، وأوجد مبدأ التعاون بين طرفي الحوار حتى يصل كل منهما إلى مقصد الآخر، حيث يعبر المرسل عن قصده مع ضمان قدرة المرسل إليه على فهم القصد وتأويله.

ولا بد من التفريق بين المعاني والمقاصد ابتداءً، وتجدر الإشارة إلى أن اللغويين لم يفرّقوا بين المعنى والقصد؛ فقد جاء في لسان العرب: "لا يُقال غُنِيْتُ بجانتك إلا على معنى قصدتها، من قولك غُنِيْتُ الشيء أعنيه، إذا كنت قاصداً له، وعنيْتُ بالقول كذا: أردتُ. ومعنى كلِّ كلامٍ ومعناته ومعنيته: مقصده" (ابن منظور، ١٩٩٩، عني، قصد). فالمعاني تُفهم من المواضع اللغوية، في حين أنه لا بد لاستنباط المقاصد من الوقوف على القرائن اللفظية والمعنوية والاستعانة بالقرارات الاستنتاجية والتأمل في الأصول التخاطبية" (علي، ٢٠١٦، ٩٢)، فليس المعنى هو الهدف الأساسي في المقاربة التخاطبية، بل أصبح مرحلة مؤقتة للوصول إلى القصد، وفي الوقت نفسه يمكن عدّه (أي المعنى) خطوة إجرائية لبلوغ مقصد المتكلم، فهو انتقال بالمدلول لغاية أخرى هي كشف المراد من الخطاب، أو مقصده، أو غايته.

كما يمكن القول: أنه "يمكن أن يُفهم المعنى دون أن يُدرك المقصد، وهو أمر شائع في المخاطبات، وقد نَمَّ القرآن كفار قريش بوصفه لهم أنهم (لا يفقهون)، مع أنهم عرب أقحاح يفهمون معاني الكلام، ولكنهم يخفقون في فهم مقاصد الشارع" (المصدر نفسه، ٩٣). وتنتمي المقاصد إلى الكلام والاستعمال، بينما تنتمي المعاني إلى اللغة والوضع، ولذلك يمكن الحديث عن "معاني الجمل ومقاصد القولات، على افتراض أن الجمل كيانات وضعية مجردة، والقولات هي التحققات الفعلية للجمل في المقامات التخاطبية" (المصدر نفسه، والصفحة نفسها).

لقد درس علماء العربية القدماء أثر السياق في المعنى والقصد من اللغة ووجوه استعمالها، غير أن مفهوم القصد عندهم اختلف إلى حد ما عن مفهومه عند التداوليين، ففي النظرية التداولية مثل الغاية والهدف، وانبنى على فهم المتلقي لا ما أراده المرسل، وهو بالتأكيد خلاف ما ذهب إليه علماء العربية حين عدّوا القصد غاية المتكلم، يقول ابن جني (ت ٣٩٢هـ) في تعريف اللغة: "أما حدّها فإنّها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" (جني، ١٩٥٢، ١: ٣٢). غير أننا نجد المقصدية في سياق التداولية تعني: "الدلالة والفهم؛ لأن الدلالة تعني ضرورة قصد التواصل من قبل المرسل، والفهم يعني الاعتراف من قبل المتلقي بقصد تواصل المرسل" (مفتاح، ١٩٩٢، ١٦٣).

لقد أولت الدراسات التداولية بدايةً الاهتمام بالمتكلم ورأت فيه القوة التي تمتلك سلطة توجيه المخاطب وعدت المتلقي في مرتبة أدنى حيث ينفذ الأوامر التي تصدر له من المرسل وهو ما سُمي بـ (التواصل التوجيهي)، بيد أن هذا التصور

سرعان ما انهار حين عُدَّت المقصدية قاسماً مشتركاً بين المرسل والمرسل إليه، وإنما الفرق بينهما يكمن في من يُمسك بزمام المبادرة، بل أنّ هناك مَنْ رأى "أن المقصدية قد يتحكم فيها المتلقي، فيجعل المتكلم في قبضة يده، فيتصرف فيه كيفما يشاء، ثم يضطر المتكلم إلى تكيف خطابه حسب رغبات المتلقي، بل قد يكون ناطقاً بلسانه" (مفتاح، دينامية النص، ١٩٨٧، ٤٦)، فالأمر جُلُّه يتعلّق بالسلطة وقوّتها، أي سلطة الخطاب، ومقامات التواصل؛ فإن كان المتلقي صاحب السلطة وجبّ على المتكلم مراعاة مقامه، وتكيف خطابه على وفق أهواء المُخاطَب، وقد جاء في الخبر أنّ الشاعر (عبيد بن الأبرص) لما حبسه حُجر بن الحارث بن عمرو مع نفر من بني أسد إذ امتنعوا عن أداء الإتاوة للملك، فأخذ سراتهم وأباح أموالهم، وأقسم بالله ألا يساكنوهم في بلد أبداً، قال كما جاء في الأغاني: (الأصفهاني، ٢٠٠٨، ٩: ٦٢-٦٣):

وفي ديوان الشاعر (عدرة، ١٩٩٤، ١٠٨-١٠٩): أيها الملك اسمع مقالتي (من مجزوء الكامل)

يا عَيْنِ فابكي ما بنِي	أَسَدٍ فَهُمُ أَهْلُ النَّدَامَةِ
جِلًّا أَيْبَتِ اللَّعْنِ جِ	سَلًّا إِنْ فِيمَا قُلْتِ أَمَّة
فِي كُـلِّ وَاذِ بَيْنِ يَثُ	رِبِ فَالْقُصُورِ إِلَى التِّمَامَةِ
تَطْرِيْبُ عَـانٍ أَوْ صِـيَا	حُ مَخْرَقٍ أَوْ صَوْتُ هَامَّة
وَمَنْعَتُهُمْ نَجْدًا فَفَقْد	حَلَّوْا عَلَيَّ وَجَلِّ تِهَامَةَ
إِـمَّا تَرَكْتَ تَرَكْتَ عَفْـ	وَأَوْ قَتَلْتَ فَلَـمَلَامَةَ
أَنْتِ الْمَلِيكُ عَلَيَّهِمْ	وَهُمُ الْعِيْدُ إِلَى الْقِيَامَةِ
ذَلُّوا لِسَـوْطِكَ مِثْلَ مَا	ذَلَّ الْأَشْـيُقْرُ ذُو الْخِرَامَةِ

إنّ النظر في أبيات الشاعر عبيد بن الأبرص يكشف لنا أن المُخاطَب وهو الملك حُجر بن الحارث كان صاحب المَسْكِ بزمام المبادرة، وهو صاحب السلطة على المتكلم (أنت المليك عليهم)؛ فكيف الشاعر خطابه على وفق رغبات المتلقي فأظهر الندم هو وقومه (هم العبيد)، والتوسل بالملك للتخلي عن قسمه بنفي قبيلة الشاعر عن مواطن سكنهم (جلاً أبيت اللعن)، والأخيرة مما تُخاطب به الملوك، ووصفه إياهم بأنهم عبيدٌ إلى يوم القيامة، بل ترك الخيار للملك أن يعفو عنهم (تركت عفواً)، أو أن يقتلهم دون أن يلومه لائم (أو قتلت فلا ملامة) فهم مذنبون، ويستحقون الذل الذي نالوه، إنَّ كلَّ ما سبق وظّفه الشاعر بناءً على رغبات الملك حيث مثَّل (السلطة) فيما يجب أن يسمع ويرى، وأما المقصد فهو طلب العفو والصفح عن الشاعر وقومه، وقد نجح الشاعر في خطابه بعد أن استطاع إرضاء الملك بما صاغه الشاعر من خطاب يتناسب ونوازع المتلقي ومن ثمَّ إطلاق سراح الأسرى، والعفو عنهم، والتخلي عن قسمه.

ويوصف النص الأدبي بأنه ملفوظات لغوية تتضمّن مقاصد مباشرة وضمنية يعبر عنها المرسل أو المرسل إليه أو كلاهما. بمعنى أنّ هناك مقاصد أولية تختص بالمرسل الشاعر، كالكراهية والحب والاعتقاد والخوف .. الخ، وهناك مقاصد ثانوية، تختص بالمتلقي الذي عليه أن يفهم مقاصد المبدع، ولا بدّ حينذاك أن يعرف الحالة الوجدانية والذهنية والنفسية للمرسل.

ومن أمثلة المقاصد المباشرة: قول امرئ القيس (إبراهيم، ١٩٨٤، ٢٠٠)، في جماعة من بني آكل المرار الكنديين، وقد فتك بهم المنذر بن ماء السماء بعد أن غدر بهم وأسره (الدين، ٢٠٠٢، ١٨): (من الوافر)

وَبَكِّي لِي الْمَلُوكَ الذَّاهِبِينَ	أَلَا يَا عَيْنُ بَكِّي لِي شَنِينًا
يُسَاقُونَ الْعَشِيَّةَ يُقْتَلُونَ	مُلُوكًا مِنْ بَنِي حُجْرٍ بِنِ عَمْرٍو
وَلَكِنْ فِي دِيَارِ بَنِي مَرِينَا	فَلَوْ فِي يَوْمٍ مَعْرَكَةٍ أُصِيبُوا
وَلَكِنْ بِالْـدِمَاءِ مُرْمَلِينَ	فَلَمْ تُغَسَّلْ جَمَاعَتُهُمْ بِغَسَلٍ
وَتَنَّتْ زِعَ الْحَوَاجِبِ وَالغُيُوثِ	تَطَّلُ الطَّيْرُ عَاكِفَةً عَلَيْهِمْ

فالشاعر يُخاطب ذاته، وظاهر اللفظ كباطنه، ومقصده دلٌّ عليه اللفظ، وهو رثاء قومه الذين غدر بهم المنذر، والنص مليءٌ بالعاطفة، رسم الشاعر من خلاله صورة عاطفية عكست مشاعره، فهم (ملوك من بني حُجْر) قتلوا بذلة رَسخت هذا المعنى لفظة (يُساقون) بما تحمله من خضوع وانقياد لأسريهم، ولم يكن اختيار وقت (العشيّة) اعتباطاً، بل لإضفاء جوٍّ من الحزن والكآبة من جهة، ولتثبيت فعل الغدر من جهة أخرى، فلو كان لسبب ما لقتلهم نهراً! ويُخبر الشاعر أنّه لو كان قتلهم في معركة لم يكن ليبغ حزنه عليهم هذا المبلغ، ولكن لأنهم قتلوا ظلماً في (ديار بني مرينا) بعيداً عن أهلهم فلم يُغسلوا بِغسل، وأضحوا طعاماً للسباع من الطيور. إنّ الإحساس الصادق للشاعر إزاء ما ألمَّ ببعض قومه جعل من ألفاظه واضحة وعفوية، ومن ثمّ وضوح مقصده الذي عبّر عنه مباشرة.

وأما المقاصد الضمنية الثانوية، فمنها قول عدي بن زيد مخاطباً أخاه، وقد كتب له من السجن (المعيبد، ١٩٦٥، ١٦٤): (من المتقارب)

وَهَلْ يَنْفَعُ الْمَرَّةَ مَا قَدْ عَلِمَ	أَبْلِغْ أُبَيًّا عَلَى نَأْيِهِ
دِ كُنْتَ بِهِ وَاثِقًا مَا سَلِمَ	بِأَنَّ أَخَاكَ شَقِيقَ الْفُؤَادِ
إِمَّا بِحَقِّ وَإِمَّا ظَلِمَ	لَدَى مَلِكٍ مَوْثِقٌ فِي الْحَدِيدِ
مِ مَا لَمْ يَجِدْ عَارِمًا يَعْتَرِمَ	فَلَا أَعْرِفُكَ كَدَابِ الْغُلَا
نَمَّ لَيْلَةً لَيْسَ فِيهَا خُومَ	فَأَرْضُكَ أَرْضُكَ إِنْ تَأْتِينَا

أخبر الشاعر أخاه على الرغم من بُعده (على نأيه) مستعملاً إشارة اجتماعية للتأثير به (شقيق الفؤاد)، بأنه موثق في سجن الملك النعمان، ولأسباب قد تكون محقة أو ظالمة، وكم تمّنى الشاعر أن يلتقي بأخيه فيرجع الود حتى أنهما ينامان معاً (ننم) لا يكدّر صفو هذه الليلة أي شيء. هذا ظاهر اللفظ، أمّا مضمره: فالنأي مقصود وهو قطيعة بين الأخوين، وإخبار الأخ بحبس أخيه لا يحتاج إلى مُبلغ فهو معلوم من قبل الجميع، ولكن القصد في هذه الأبيات هي تحريض الأخ على فكّه من أسره وسجنه، والطلب منه أن لا يألُو جهداً في خلاصه، فما يعرفه الشاعر عن أخيه أنّه لا يرضى له ذلك، وأسلوب العرض (أرضك أرضك) دلٌّ على المقصدية المضمره، وهذا ممّا ينماز به الخطاب الأدبي دون سواه، وهو الركون إلى المقاصد المضمره خلف الألفاظ الوضعية.

ويوظف الشعراء في النص الأدبي، كلمات وتعبيرات وأسماء أعلام لها قصدية مباشرة وغير مباشرة تدرك بطريقة ظاهرة، أو تفهم بالتضمين والتلميح (حمداوي، ٢٠١٩، ٣٥). فيوظف الشاعر اللغة في ضوء دلالة قصدية، تتحول قصائده

من خلالها إلى علامات وإشارات ورموز تحمل دلالات مقصدية، تُعرف من قبل المرسل إليه عبر آليات التأويل والتشريح والتفكيك، "إن الشعراء مهما كانت أجناسهم وأمصارهم وأزمنتهم حرصوا على قصدية اللغة الشعرية، بمعنى الارتباط الطبيعي بين الدال والمدلول" (مفتاح، ١٩٨٧، ٥٦). قال عدي بن زيد (المعيبد، ١٩٦٥، ٨٧-٨٨): (من الخفيف)

أَيُّهَا الشَّامِثُ الْمُعَيَّرُ بِالْـ	دَهْرٍ أُنْتُ الْمُبْرَأُ الْمَوْفُورُ
مَنْ رَأَيْتَ الْمَنُونَ خَلْدَنْ أَمْ مَنْ	ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ
أَيِّنْ كِسْرَى كِسْرَى الْمُلُوكِ أَنْو	شِرْوَانٍ أَمْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابِـ
وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْمُلُوكِ مُلُوكِ الـ	رُومِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكَـ
وَأَخُو الْحَضَرِ إِذْ بِنَاهُ وَإِذْ دَجـ	لَةُ تُجْنَى إِلَيْهِ وَالْخَابِـ
شَادَهُ مَرْمَرًا وَخَلَّلَهُ كِلـ	سَاءَ فَلِلطَّيْرِ فِي ذُرَاهُ وَكـ
لَمْ يَهَبَهُ رَيْبُ الْمَنُونَ قَبَادَ الـ	مُلُوكِ عَنْهُ قَبَابُهُ مَهْجـ

لقد وظّف عدي بن زيد أسماء أعلام مثل: (كسرى أنو شروان، وسابور ذي الأكتاف، وملوك الروم، وصاحب الحضرة) لمقصدية ظاهرة هي: اتساع مُلك من ذكر منهم، ومن ثمّ موتهم وضياع هذا المُلك، فلا شيء يدوم إلّا وجهه، وعلى المتلقي وهو الملك النعمان أن يتعظ بمن مضى فلا يظلم ولا يطغى ولا يغتر بمُلك، وهذه هي المقصدية الأخرى المضمرة، فذكر من مضى ليس غايته الاتعاض أو التذكير بما آلوا إليه فحسب، بل هو استعطاف وطلب من الملك النعمان بأن يُمّن على الشاعر بإطلاق سراحه، فيبقى له ذكرٌ خالدٌ، وله فيمن سلف موعظة، فلا يبقى للإنسان بعد موته إلا الذكر الجميل.

ويلجأ المتكلم إلى الإظهار والإضمار في كلامه حين يبليغ رسالة ما، وحسب السياق الذي يردان فيه يؤولان تأويلات مختلفة، وعلى وفق الدرس التداولي لقراءة الخطاب ينبغي تجاوز الملفوظ اللغوي إلى السياق؛ إذ يحتوي متضمنات تغني الخطاب فيما لو استنتجت منه، بوصفها المقصودة من وراء القول. وأمّا سياق التلفظ فيعدّ نقطة البداية لتحديد أقوال المخاطب، حيث الخطاب يرتبط بالملفوظ والسياق معاً، ففي الخطاب الأدبي غالباً ما يلجأ إلى الإضمار؛ فقد "يعجز المتكلم لأسباب تتعلق باللباقة عن استعمال العبارة المباشرة، فيلجأ إلى الصيغ المضمرة لتذليل عقبة وجود بعض المحرمات في مجتمع معين، وذلك بغية إحباط بعض الرقابات ذات الطابع الأخلاقي أو السياسي أو القانوني والاحتياط على قانون الصمت الذي يحظر التحدث عن بعض الأغراض الخطابية، ففي سياق اجتماعي معين، ثمة العديد من الأمور التي ينبغي إضمارها وعدم الإتيان على ذكرها بشكل مباشر على الأقل" (أوركيني، ٢٠٠٨، ٢٦). ومن هذه الأمور الإيغال في الحديث عن المشاعر التي تنتاب المرء في أحواله المختلفة، وعن الأصمعي أنّه قال: "كان ملك من ملوك غسان يُعزّر النساء، لا يبلغه عن امرأة جمالاً إلّا أخذها، فأخذ بنت يزيد بن الصعق الكلابي، وكان أبوها غائباً، فلما قدّم أُخبر، فوفد إليه، فصادفه منتدياً، وكان الملك إذا انتدى لا يُحجب عنه أحدٌ، فوقف بين يديه وقال: (من الكامل)

يا أيُّها الملكُ المُقيتُ أما تُرى
 ليلاً وُصُباحاً كيفَ يَختلفانِ
 هل تَستطيعُ الشمسَ أن تُؤتى بها
 ليلاً وهل لك بالمليكِ يَدانِ
 فاعلم وأيقن أن ملكك زائلٌ
 واعلم بأنَّ كما تُدينُ تُدانُ

فأجابه الملك: (من الكامل)

إنَّ التي سَأبَت فُوادِكِ خُطَّةٌ
 مرفوضةٌ مِلانَ يا ابنَ كلابِ
 فارجعْ بِحاجتِكَ التي طالبتَها
 والحقْ بِقومِكَ في هَضابِ إرابِ

ثمَّ نادى أنَّ هذه السَّنَةُ مرفوضةٌ" (العسكري، ١٩٨٨، ٢: ١٤٠).

كان السياق الاجتماعي متمثلاً بحضور الملك مع جمعٍ كثيرٍ أُشير له في الرواية بقول الأصمعي: (إنَّ الملك إذا انتدى لا يُحجب عنه أحد)، والرقابة الأخلاقية التي تقتضي من الشاعر أن لا يُشهر بالحادثة، وأن لا يذكرها الملك بالتفصيل صراحةً، اقتضت الإضمار في المقصد، فلفظُ الشاعر يدلُّ على أبياتٍ في الحكمة والموعظة، حتى أن أبا عبيدة قال فيها: "ما أنشدَ هذا البيتَ ملكٌ ظالمٌ إلا كفَّ من غزبه" (المصدر نفسه والصفحة نفسها)، غير أن المقصد الحقيقي لم يكن الموعظة أو الحكمة أو النصيحة، بل كان طلب إطلاق سراح ابنته السبية، وبالعودة إلى لفظ الملك، فلم يكن قصده ما أعلن من إخبار للشاعر أنَّ هذه السَّنَةُ مرفوضة من زمن التلقظ للشاعر بأبياته، ولكنه أضمر قصداً هو الموافقة على إطلاق سراح بنت يزيد بن الصعق الكلابي دلَّ عليه قوله: (فارجع بحاجتك التي طالبتها).

وبما أننا لا نفهم اللغة ما لم نفهم الخطاب الذي وردت فيه، ولا نفهم الخطاب ما لم يكن هناك تواصل بين الأطراف المتخاطبة، وأساس التواصل القصْد، ندرك عند ذلك أهمية المقصدية في التواصل بوصفها دلالةً وفهماً؛ "فالدلالة تعني ضرورة توافر قصد التواصل من قبل المرسل، والفهم يعني الاعتراف من قبل المتلقي بقصد تواصل المتلقي" (مفتاح، ١٩٩٢، ١٤٠).

إنَّ التداولية، على سعة توجهاتها، غير أنها تولي التواصل ونجاحه أهمية كبيرة؛ فما كشف المقاصد وانسجام النص وتماسكه إلا أدوات لنجاح التواصل بين المتخاطبين وفي النص المذكور آنفاً أضحي الاشتراك بالسياق وفهم مقصد القول من طرفي الخطاب كليهما من أسباب نجاح (التواصل) على وفق مبدأ التعاون - كما سيأتي لاحقاً- وأثمر عن فعلٍ تأثيريٍّ صريحٍ تمثّل بإجابة الملك لطلب الشاعر وزاد عليه بإعلانه رفض هذه السَّنَةُ المقيتة.

وعلى هذا فإنَّ النص الشعري "ليس لعب ألفاظ، وليس نقل تجربة ذاتية وحسب، وإنما يهدف،

فوق ذلك كله، إلى الحث والتحريض. وبهذا المفهوم الأخير، تشمله نظرية: الكلام/ فعل، أو التداولية، وتعني هذه النظرية: أن التحدث يقصد به تبادل الأخبار، وفي الوقت نفسه، يهدف إلى تغيير وضع المتلقي، وتغيير نظام معتقداته، أو تغيير موقفه السلوكي" (مفتاح، ١٩٨٩، ٥٥)، ومن أمثلته: أن رجلاً من ثمالة أقام في جوار دريد بن الصمّة، وأن أنساً بن مدركة الخثعمي أغار على بني جشم قوم دريد، فأصاب مال الشمالي وناساً كانوا جيراناً لدريد، فشاور دريد قومته، فقالوا له: ارحل إلى يزيد بن عبد المدان فيردّها عليك، فقال دريد: بل أقدم إليه مدحةً قبل ذلك وأنظرُ موقعي منه، فبعث إلى يزيد قوله: (من الوافر)

بنبي السديان رُدوا مالَ جاري
وَأَسْرَى فِي كُبُـوْلِهِمُ الثَّقَالِ
وَرُدُّوا السَّبِيَّ إِنْ شِئْتُمْ بِمَنْ
وَإِنْ شِئْتُمْ مُفَادَةً بِمَالِ
فَأَنْتُمْ أَهْلُ عَائِدَةٍ وَفَضْلِ
وَأَيُّدٍ فِي مَوَاهِبِكُمْ طُـوَالِ
وَحَرَبِكُمْ بَنِي السَّدِيانِ حَرْبُ
يَغْصُ الْمَرْءُ مِنْهَا بِالزُّلَالِ
وَجَارِكُمْ بَنِي السَّدِيانِ بَسَلُ
وَجَارِكُمْ يُعَدُّ مِنَ الْعِيَالِ
فَأُولُونِي بَنِي السَّدِيانِ خَيْرًا
أَقْرُّ لَكُمْ بِهِ أُخْرَى اللَّيَالِي

فلما بلغ يزيد شعر دريد قال: وجب حقُّ الرجل، فلما قَدِمَ عليه أكرمه وأحسن مَثواه ووهب له ما طلبه (عبد الرسول، ١٩٨٥، ١٤٩).

وتشير هذه الحكاية إلى جانب مهم في حياة العربي الجاهلي، وهو أثر الخطاب الشعري في المتلقي، ودريد يدرك هذا فلم يرضَ بمشورة قومه أن يذهب مباشرةً إلى يزيد بن عبد المدان وهو سيّد قومه آنذاك، وإنما استعان بالشعر لتحقيق غايته؛ فوظف الخطاب أحسن توظيف لتحقيق مقصده، والملاحظ أنه ابتدأ خطابه بنداء الجمع وحذف الأداة (بني السديان)، على الرغم من أن المخاطب هو يزيد لا سواه، ولكنّه كان يمثّل القبيلة فهو سيّدّها، وأما حذف أداة النداء فللدلالة على قرب المنادى وتضامنه معه، أما الأفعال التوجيهية المباشرة (رُدوا مال جاري، رُدوا السبي، أولوني) إنّما كانت على سبيل الرجاء ودلالاتها قوله (إن شئتم)، (أولوني خيراً)، وأما الجمل الإخبارية (أنتم أهل فضل) و (حربكم يغصُّ بها المرء) و (جارتكم بسَل).. وغيرها، فلم يكن القصد منها تبادل الأخبار فقط، ولكن هي دعوة لتغيير سلوك يأمله الشاعر من المتلقي، وهو ما حصل؛ إذ أكرم الشاعر ورُدَّ إليه ما أخذ منه ومن جيرانه، وأطلق الأسرى.

ولما كانت قصيدة النص لا تُعطى بشكل مباشر صار لزاماً انفتاح النص على التأويلات المتعددة، وهو ما جعل (أمبرتو إيكو) يعرب عن عجزه في تحديد تجريدي لهذه المقولة ورأى "إذا كان بالإمكان الحديث عن قصيدة النص فإن ذلك مرتبط بتخمينات القارئ(المتلقي)" (إيكو، ٢٠١٦، ٧٤). وقد ورد في قصيدة عبد يغوث الحارثي، ومطلعها: (من الطويل)

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا
فما لكم في اللوم خيرٌ ولا ليا
قوله:

أقولُ وقد شَدَّوْا لِسَانِي بِنِسْعَةٍ
أَمَعَشَرَ تَمِيمٍ أَطْلَقُوا مِنْ لِسَانِي

وقد اختلف تأويل هذا البيت عند من ذكروا هذه القصيدة المشهورة، فمنهم من ذهب إلى أن أسريه شدوا لسانه بنسعة، وهي قطعة من جلد، حتى لا يهجوهم (ينظر: الأصفهاني، ٢٠٠٨، ١٦: ٢٢٨، والضبي، ١٩٦٤، ١٥٧، والجاحظ، ١٩٩٨، ٤: ٤٥)، غير أن أحمد الحوفي يقول: "ولست أعقل هذا، لأنَّ الأسير لا يستطيع أن يهجو، وإن هجا فمن يروي هجاءه؟" (الحوفي، ١٩٥٢، ٢٠٤)، وقال القالي في ذيل أماليه: "هذا مثلٌ؛ لأنَّ اللسان لا يُشد بنسعة وإنما أراد أفعلا بي خيراً ينطق لسانه بشكركم، فإن لم تفعلوا فلساني مشدودٌ لا يقدر على مدحكم" (القالي، ٢٠٠١، ٦٧٧)، ومنهم من جمع الآراء كلها فأوردها في تأويل البيت (ينظر: الفرج، ٢٠٠٤، ٥٨٩)، وبعد هذا القول يمكن الإشارة إلى اختلاف التأويل لمقصد الشاعر؛ بسبب اختلاف القراءات من واحد لآخر.

إنَّ الجمل والخصائص الترابطية واختيار المفردات تخضع لحالة المتكلم الذهنية والانفعال في موقف معيّن يريد التعبير عنه بهدف حث المتلقي على تفسيره، كإشارة إلى حالته النفسية في وقت ما ومكان ما، أو قد يكون الخطاب تعبيراً عن سياق اجتماعي يرتبط بقصد معيّن، وعند ذلك لا يكون القصد الإخباري متصلاً بقول واحد، بل بمجموعة أقوال تكوّن خطاباً مقصوداً، وقد اقترح (آن روبول وموشلار) نوعين من المقاصد (ريبول و موشلار، ٢٠٠٣، ٢١٦):

أولاً: مقاصد متصلة بالقول، وهي: مقاصد موضوعية.

ثانياً: مقاصد متصلة بالخطاب، وهي المقصد الإجمالي.

قال عدي بن زيد في سجنه مخاطباً النعمان بن المنذر (المعيبد، ١٩٦٥، ١٣٢): (من الوافر)

أَلَا مَنْ مُبْلِغُ النُّعْمَانِ عَنِّي	عَلَانِيَةً فَقَدْ ذَهَبَ السِّرَارُ
بِأَنَّ الْمَرَّةَ لَمْ يُخْلَقْ حَدِيداً	وَلَا هَضْباً تَوَقَّاهُ الْوَبَارُ
وَكَيْنَ كَالشَّهَابِ فَنَّمَّ يَخْبُو	وَحَادِي الْمَوْتِ عَنْهُ مَا يَحَارُ
فَهَلْ مِنْ خَالِدٍ إِمَّا هَلَكْنَا	وَهَلْ بِالْمَوْتِ يَا لِلنَّاسِ عَارُ

لقد حوى النص مقاصد موضوعية تمثلت بإخبار المتلقي - وهو الملك النعمان - أنَّ الإنسان لا بدَّ أن يموت وهي سنّة الحياة ومن ثمَّ فليس عاراً أن يهلك وهو كالشهاب الذي ينير السماء ثم يخبو، وهي موعظة وحكمة، يمكن استقراءها من النص مباشرة، غير أنَّ المقصد الإجمالي المرتبط بالخطاب غير ذلك، فمقصد خطاب الشاعر أنَّ صبره نفذ (بأنَّ المرء لم يُخلق حديداً)، وأنَّه علم بنهايته (فهل من خالدٍ)، والمقصد الإجمالي كشأنه في أغلب خطابه التي توجّه بها إلى الملك النعمان هو: الاستعطاف وطلب إطلاقه من سجنه، فالخود في العمل الذي سيخلّده فيما بعد يتمثّل بالصفح، وهذا يدلُّ على تعدد المقاصد والتأويلات في الخطاب الواحد، وممّا لا تخطنه عينان هو فشل خطابات عدي بن زيد كلّها؛ فلم يستطع فيها إقناع الملك من الصفح عنه وإخراجه من السجن، ومن ثمَّ نهاية حياته المعروفة.

لقد أضحى العلم بالمقاصد حاجة أساسية لتكوين الخطاب؛ كي يحقق أغراضه، ويستطيع المرسل إيصال مقصده إلى المرسل إليه. ويجد هذا الأخير نفسه ملزماً بمعرفة مراد المتكلم؛ كي يحقق ممارسة فعله التأويلي لتلقي الخطاب، يقول الجرجاني (ت ٤٧١هـ): "وقد أجمع العقلاء على أنَّ العلم بمقاصد الناس في محاورتهم علم ضرورة ...، إنَّ الناس إنَّما يكلم بعضهم بعضاً ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده فينبغي أن ينظر إلى مقصود المخبر من خبره ما هو؟ أهو أن يُعلم السامع وجود المخبر من المخبر عنه؟ أم أن يعلمه إثبات المعنى المخبر به للمخبر عنه؟" (الجرجاني، ١٩٩٢، ٥٣٠)، فإن اتجهنا نحو الشعر خاصةً وجدناه "ليس مجرد نشاطٍ عابرٍ يحققه صاحبه وقت فراغه، بل هو نشاط مقصود يلتمس له أسبابه، ويهيء له نفسه وقدراته" (علي أ.، ١٩٨٨، ٢٥٥)، ونجدُ في المدونات النقدية لقدماء نقادنا العرب أنَّ القصد مرادفٌ للغرض وانسحب هذا المفهوم على النحاة العرب القدماء إذ يرون فيه "الغاية التواصلية التي يريد المتكلم تحقيقها من الخطاب وقصده منه، وعليه تكون مراعاة الغرض من الكلام في عرف أغلب النحاة، قرينة تساعد في تحديد الوظيفة النحوية للكلمة وبيان دورها في التحليل النحوي للجملة وهي المعاني التي تعارف عليها المعاصرون باسم (القصدية)" (صحراوي، ٢٠٠٥، ٢٠٠-٢٠١)، واشترط عبد القاهر الجرجاني معرفة غرض المتكلم وقصده في تحديد بعض الوظائف النحوية (لا سيما المسند والمُسند إليه في كثير من الشواهد العربية) (المصدر نفسه ٢٠١).

وقد جاء أنه أسر المنذر في يوم أواره من بكر أسرى كثيرة، وكان رجل من قيس بن ثعلبة منقطعاً إلى المنذر، فكلمه في سبي بكر بن وائل، فأطلقهن جميعاً، فقال الأعشى يفخر بشفاعة القيسي (المولى، الجاوي، و إبراهيم، ١٩٦١، ٩٩):
(من الطويل)

ومنا الذي أعطاه بالجمع ربه
على فاقه وللملوك هبائها
سبايا بني شيبان يوم أواره
على النار إذ تجلى له فتياؤها

ففي الوظيفة الإسنادية الأمر متروك للقارئ أو المحلل النحوي في أيهما يجعل منه مبتدأ (مسند إليه) وأيها يجعله خبراً (مسنداً)، أما عبد القاهر فيبين خطأ هذا التحليل اعتماداً على غرض المتكلم وقصده (ينظر: الجرجاني، ١٩٩٢، ٣٧٤)، فأن تسند إلى (الذي أعطاه بالجمع ربه)، غير أن تسند إلى (منا) بما في اللفظ من فخر جماعي، وعلى هذا فالقصد من قول الشاعر هو الذي يحدد المسند إليه والمسند على وفق رأي الجرجاني.

أما توجيه المقصدية للخطاب الشعري، فتبنى المقاصد في خطاب لغوي فتدل عليها عناصر السياق الذي أنجز فيها الخطاب من ثم يوظفها المتلقي لفهم مقاصد المتكلم المبلغة له لفهم التأثير الذي يراد تحقيقه منه، فالسياق الذي نبحت عنه عند ذلك (لغوي وغير لغوي - أي سياق الحال -)، فلا "يتكلم المتكلم مع غيره إلا إذا كان لكلامه قصد، وهذا القصد كما يرى الأصوليون محدد عند المتكلم وثابت لا يتغير، وهو لذلك يتخذ من الوسائل الكلامية والمقامية ما يعين السامع على إدراك ما يريد، ولكن مراتب السامعين تتفاوت في إدراك مقصود المتكلمين تبعاً لتفاوت قدراتهم العقلية واللغوية والثقافية" (نحلة، ٢٠١١، ٨٩)، على أن القصد قد يلتبس على أهل اللغة إذا وقف عند المعنى الأصلي للألفاظ دون إدراك للمعنى الاستعمالي أو جهل السياق.

لقد كان النقاد القدماء "يمتدحون الشاعر الموفق الذي يهتدي إلى الكلمة التي تكون شديدة الإبانة عن قصده" (بدوي، ١٩٩٦، ٤٥٢)؛ ولذا شاع استعمال مصطلح الغرض للتعبير عن القصد في مؤلفاتهم، يقول حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) متحدثاً عن مطالع القصائد: "فملاك الأمر في كل ذلك أن يكون المفتوح مناسباً لمقصد المتكلم من جميع جهاته، فإذا كان مقصده الفخر كان الوجه أن يعتمد من الألفاظ والنظم والمعاني والأسلوب ما يكون فيه بهاء وتقويم، وإذا كان المقصد النسب كان الوجه أن يعتمد منها ما يكون فيه رقة وعدوبة، وكذلك سائر المقاصد" (القرطاجني، ٢٠٠٨، ٢٧٩).

وينماز الخطاب الفني عموماً، والخطاب الشعري خاصة، بهيمنة الوظيفة الجمالية أو الشعرية عليهما، وتختص بتصوير ذاتية الأديب وتجربته الفنية، فتمسي المعاني المباشرة والسطحية في العمل الأدبي غير مقصودة، فيضم الشاعر القصد الحقيقي والمعنى الفعلي وراء الألفاظ الوضعية، ومعاني النص السطحية، فتتداخل المعاني، ويُعبّر بوساطة الأسلوب الفني، والمجازات عن المعاني الثواني بالمعاني الأول؛ مما يُضفي قابلية التأويل وسمة الانفتاح على النص الأدبي، وهذا الانفتاح وتعدد المعنى والقابلية على التأويل يجعل الحكم على معنى أي نص أمراً نسبياً لا يمكن القطع به؛ لتعدد القراءات للنص ومن ثم تعدد المعاني.

ويقول محمد مفتاح: "إن القصدية تحدد كيفية التعبير والغرض المتوخى فهي البوصلة التي توجه عناصر القصيدة وتجعلها تتضام وتتصافر وتتجه إلى مقصد عام" (مفتاح، ١٩٩٢، ٥٣) فالقصدية هي التي تشكل القصيدة في وعي الشاعر، وهذه الأخيرة تعبير عن إحساس الشاعر وانطباعاته إزاء فكرة ما، أو تعاطف مع موضوع، أو تفاعل مع حالة أو حب أو كره، أو استحسان أو نبد لأفكار وممارسات حياتية.

أما المقصدية في اللسانيات الحديثة فيمكن الإشارة لها من خلال تناول بعض الآراء فيها، حيث رأى (غرايس) "أن كل حدث سواء أكان لغوياً أم غير لغوي إما أن يكون محتوياً على نية الدلالة وإما أن لا يكون محتوياً عليها" (المصدر نفسه، ١٦٤)، وضرب أمثلة تبيّن النوعين فأحمرار وجنة الفتاة تدل على الخجل وتراكم الغيوم يدل على أن السماء قد تمطر وهكذا، وكلا الحدثين لهما دلالة ولكن ليس فيهما قصد، أما إذا خاطبنا أحداً فنقول: (اكتب) أو (افتح النافذة) وغيرها فهناك قصد يتحكم بهذه الملفوظات، وهكذا، فالعملية التواصلية القصدية تقترض وجود مرسل ومتلقٍ، أي طرفين إنسانيين، "وإنّ المقاصد أنواع: أولي: يتجلى في المعتقدات والرغبات التي تكون لدى المتكلم، وثانوي: يكون فيما يعرفه المتلقي من مقاصد المتكلم، وثلاثي: ينعكس في هدف المتكلم الذي يريد أن يجعل المتلقي يعترف بأنه يريد منه جواباً ملائماً" (المصدر نفسه، والصفحة نفسها).

وقد ورد في الأغاني: أنه زار يزيد بن عبد المدان الغساني ابن جفنة فأكرمه وقرب مجلسه، فلما أراد أن يرتحل سمع رجلاً يقول (الأصفهاني، ٢٠٠٨، ١٢: ١٢): (من المتقارب)

أما من شفيحٍ من الزائرين يُجِبُّ الثنا زندهُ ثاقبُ
يريد ابن جفنة إكرامه وقد يمسخ الضرة الحالبُ
فينقذني من أظافيره وإلا فإنني غداً ذاهبُ

فعلم يزيد أن هذا الرجل هو سجين عند الملك، وحين غدا يزيد على ابن جفنة ليودعه، قال له: حياك الله يا ابن الديان! حاجتك. قال: تهب لي الجذامي الذي لا شفيح له إلا كرمك. قال: قد فعلت.

إن طلب الجذامي لشفيح يشفع له عند الملك لينقذه من سجنه يمثل مقصداً أولياً، واعتراف يزيد بن عبد المدان برغبة المتكلم بالشفاعة بعد أن فهم قصده من خطابه يمثل مقصداً ثانوياً، ورغبة المرسل في تلبية المتلقي للطلب يمثل المقصد الثلاثي.

غير أنه ليس من الضرورة وجود هذا التواصل المثالي؛ ففي حالات أخرى لغوية أو طبيعية، يقصد المتكلم غرضاً لا يدركه المتلقي وإن حققت أهدافها، وهذا ما نلمسه في التورية والرمز. ففي قصة موت المهلهل، أن الزير سالم عندما كبر وهرم ذهب في أحد الأسفار مع اثنين من خدمه وكثرة ضجرهما منه قررا أن يتخلصا منه ويقتلاه فحاول أن يمنعهما ولكنه لم يفلح؛ لكبر سنه وضياع قوته فأوصاهما أن يقولوا لابنتيه بعد قتله (القول، ١٩٩٥، ١٣): (من الكامل)

من مبلغ الأقسام أن مهلهلا لله دركمما ودر أبيكمما
فلما قتلاه ذهاباً إلى حي المهلهل وهما يتباكيان، ولما سمعتهما ابنته قالت للقوم: إن العبدان قتلا أبي، وإنما أراد:
من مبلغ الأقسام أن مهلهلا أمسى صريعاً في الفلاة مجدلاً
لله دركمما ودر أبيكمما لا يبرح العبدان حتى يُقتلا

فعرف أهل المهلهل بما حدث له من غدر العبدان به فقتلوهما.

إن التورية والرمز في هذه القصة لم تمكن المتلقين، (العبدان)، أو (قوم المهلهل) من فهم المقصدية، واقتصر الفهم على ابنته، فالتواصل لم يكن مثالياً وإن حقق غايته؛ لوجود التورية، ومن ثم فتداول الخطاب بين المتخاطبين كي يكون

ناجماً لا بدُّ له من معرفة المُرسِل لإمكانات المرسل إليه الثقافية والعقلية المشتركة، ولذا طلب المهلهل من العبدین أن يُبلِّغاً ابنتيه دون سواهما؛ لمعرفة من قدرتهما على فهم مقصديته، وإن كان رمزاً، أو تورية.

إنَّ تنظير غرايس قد ينطبق على بعض أنواع الخطاب "الصادرة من سلطة عليا دنيوية، أو روحية، أي تقتض مرسلأً متسلطاً ومتلقياً خاضعاً، ورسالة شفافة لا إبهام فيها ولا غموض، ومتلقياً يعلم الظاهر وما يخفى" (مفتاح، ١٩٩٢، ١٦٤)، فيكون آنذاك التواصل مثالياً، حيث المقاصد الثلاثية التي أشار لها وذكُرَتْ آنفاً، فيما يرى (سيرل) أنَّ السلوك اللغوي مشتق من القصدية وليس العكس وهو ما سيُتضح في الأفعال الكلامية لاحقاً إذ تفرض تحديد أشكالها ومعانيها الممكنة.

لقد اتخذ (غرايس) و(سيرل) الذات منطلقاً لخلق عملية التواصل، فغرايس حصر مقاصد المتكلم في التأثير في المتلقي، ودمج سيرل القصدية في نظرية (الفكر والفعل) وأرجع دراساته اللغوية الى منطلق ذاتي ونفساني، وكلاهما قللاً من أهمية الطرف المجتمعي الذي يعطي التعبيرات اللغوية معناها بعد خلقها، وهو ما حاولت النظرية التفاعلية إقراره بعدها المرسل والمتلقي على قدم المساواة، فاشتراط سيرل "جعل المقصدية وسيلة للتمييز بين أنواع من الخطاب ... نعم نجد أغراضاً شعرية يصعب التفرقة بينها بمقياس واضح مثل شعر الحب البشري والحب الإلهي وشعر الخمرة الدينية والدنيوية، وأشعار التصوّف وبعض الأشعار الفلسفية، فقد يكون اللجوء إلى المقصدية ضرورياً في مثل هذا ولكنه ليس كافياً وإنما يجب أن يُعزّز بالمعجم، والتركيب" (المصدر نفسه، ١٦٦). ومما سبق يتضح أن المقصدية لا تكتسب معناها إلا بمقابلة مجتمعية.

الخاتمة:

لقد شكّلت المقصدية أو القصدية في الدراسات التداولية مرتكزاً مهماً، انتظمت بقية أقسام التداولية، ومن ثمَّ استطاعت تلك الدراسات الخاصة بالطابع القصدية ردّ الاعتبار (للمتكلم) بما يمثّل من أهمية كبرى؛ بوصفه أحد أقسام العملية التخاطبية، خلافاً للدراسات والمناهج الأخرى كالبنيوية التي نادى بموت المؤلف، كما أنّها، أي المقصدية، عدّت عنصراً فاعلاً في معرفة التضمينات الحوارية للمعاني المضمّنة في الخطاب.

واتضح من خلال المقصدية أبعاد العملية التواصلية، فيما يعنيه المتكلم وما يفهمه المتلقي من النص، على أن لا يغيب الفرق الدقيق بين المعنى والقصد؛ فقد يُدرك المعنى معجمياً ودلالياً ويبقى القصد خافياً. وعلى هذا يمكن التأسيس بالقول: إنَّ المقصدية تتمثل حلقة الوصل بين المتلفّظ والمتلقي، وعليه فهي من أسباب نجاح التواصل الخطابية. ومن ثمَّ فإنّها على ذلك أعلق بالأدب منه إلى اللغة؛ لما يحويه الخطاب الأدبي من انزياح في المفردات وتضمين للمعاني.

لقد تحوّلت الدراسات اللسانية من مجال اللغة إلى مجال الأدب بفضل توجهات التداولية الجديدة، وصار يطلق عليها التداولية الأدبية، فنقلت النص من الدراسات التي تناولته على المستويات النحوية والدلالية والمعجمية، إلى المستوى التداولي وأصبح موضوعها دراسة النصوص وتحليلها، والتركيز على مفهوم (التواصل) القائم على أساس الفهم والتأويل. فكان محلّ اهتمام القراءة بوصفها تواصلاً يتحقق بين المتلقي والموضوع، فالوصفية النقدية وظيفية ترتكن إلى السعي لتحقيق التواصل الفعّال وتحتاج إلى الإحاطة بالعوامل الفاعلة فيه، وتمثّل مقاصد المتكلم حجر الأساس للمعرفة.

المصادر والمراجع:

- إبراهيم، محمد أبو الفضل. (١٩٨٤). ديوان امرئ القيس (المجلد ٤). القاهرة، مصر: دار المعارف.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان. (١٩٥٢). الخصائص (المجلد دون طبعة). (تحقيق: محمد علي النجار) القاهرة، مصر: الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفرقي المصري. (١٩٩٩). لسان العرب (المجلد ٣). (اعتنى بتصحيحها: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد صادق العبيدي) بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي.
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين. (٢٠٠٨). الأغاني (المجلد ٣). (تحقيق: إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس)، بيروت، لبنان: دار صادر.
- أميرتو إيكو. (٢٠١٦). التأويل بين السيميائيات والتفكيكية (المجلد ٣). (سعيد بنكراد، المترجمون) الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
- آن ريبول، وجاك موشار. (٢٠٠٣). التداولية اليوم علم جديد في التواصل (المجلد ١). (المنظمة العربية للترجمة، سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، ولطيف زيتوني، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الطليعة.
- بدوي، أحمد أحمد. (١٩٩٦). أسس النقد الأدبي عند العرب (المجلد دون طبعة). القاهرة، مصر: دار نهضة مصر للطباعة.
- بونفقة، نادية. (٢٠١١). فلسفة إدموند هسرل: نظرية الرد الفينولوجي (المجلد ٢). الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- ج. ب. براون، و ج. يول. (١٩٩٧). تحليل الخطاب (المجلد دون طبعة). (محمد لطيف الزليطني، ومنير التريكي، المترجمون) المملكة العربية السعودية: مطابع جامعة الملك سعود.
- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر. (١٩٩٨). البيان والتبيين (المجلد ٧). (شرح وتحقيق: عبد السلام محمد هارون) القاهرة، مصر: مكتبة الخانجي، مطبعة المدني.
- جاد المولى، محمد أحمد، والبجاوي، علي محمد، وإبراهيم، محمد أبو الفضل. (١٩٦١). أيام العرب في الجاهلية (المجلد دون طبعة). صيدا-بيروت، لبنان: المكتبة العصرية.
- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن. (١٩٩٢). دلائل الإعجاز (المجلد ٣). (قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر) القاهرة، مصر: مطبعة المدني، مكتبة الخانجي.
- حمادي، إدريس. (١٩٩٤). الخطاب الشرعي وطرق استثماره (المجلد ١). الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
- حمداوي، جميل. (٢٠١٩). التداوليات بين النظرية والتطبيق (المجلد ١). تطوان، المغرب: دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني.
- الحوفي، أحمد محمد. (١٩٥٢). الحياة العربية من الشعر الجاهلي (المجلد ٢). القاهرة، مصر: مكتبة نهضة مصر ومطبعاتها.
- خطابي، محمد. (١٩٩١). لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب (المجلد ١). بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي.
- شمس الدين، إبراهيم. (٢٠٠٢). مجموع أيام العرب في الجاهلية والإسلام (المجلد ١). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- الشهري، عبد الهادي بن ظافر. (٢٠٠٤). استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية (المجلد ١). بيروت، لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة.
- صحراوي، مسعود. (٢٠٠٥). التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لتظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي (المجلد ١). بيروت، لبنان: دار الطليعة.
- الضبي، المفضل بن عاصم. (١٩٦٤). المفضليات (المجلد ٦). (تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هاون) القاهرة، مصر: دار المعارف.
- عبد الرسول، عمر. (١٩٨٥). ديوان دريد بن الصمة (المجلد دون طبعة). القاهرة، مصر: دار المعارف.
- عدرة، أشرف أحمد. (١٩٩٤). ديوان عبيد بن الأبرص (المجلد ١). بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل. (١٩٨٨). جمهرة الأمثال (المجلد ١). (تحقيق: أحمد عبد السلام، وأبو هاجر محمد سعيد بن بسبوني زغلول) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- علي، أحمد يوسف. (١٩٨٨). قراءة النص دراسة في الموروث النقدي (المجلد دون طبعة). القاهرة، مصر: مكتبة الأنجلو المصرية.

- علي، محمد محمد يونس. (٢٠١٦). تحليل الخطاب وتجاوز المعنى نحو بناء نظرية المسالك والغايات (المجلد ١). عمان، الأردن: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.
- الفرج، محمد حسين. (٢٠٠٤). شعر وشعراء اليمن في الجاهلية (المجلد ١). صنعاء، اليمن: وزارة الثقافة والسياحة.
- القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم. (٢٠٠١). الأمالي مع كتابي ذيل الأمالي والنوادر (المجلد ١). (تحقيق صلاح بن فتحي هلال، وسعيد بن عباس الجليمي) بيروت، لبنان: مؤسسة الكتب الثقافية.
- القرطاجني، أبو الحسن حازم بن محمد. (٢٠٠٨). منهاج البلغاء وسراج الأدباء (المجلد ٢). (تحقيق: محمد الحبيب)، تونس: الدار العربية للكتاب.
- القوال، أنطوان محسن. (١٩٩٥). ديوان المهلهل بن ربيعة التغلبي (المجلد ١). بيروت، لبنان: دار الجيل.
- كاترين كيبريربات أوركويوني. (٢٠٠٨). المضمرة (المجلد ١). (مراجعة جوزيف شريم، وريتا خاطر، المترجمون) بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة.
- المعبيد، محمد جبار. (١٩٦٥). ديوان عدي بن زيد العبادي (المجلد دون طبعة). بغداد، العراق: دار الجمهورية للنشر والطبع.
- مفتاح، محمد. (١٩٨٧). دينامية النص (المجلد ١). بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي.
- مفتاح، محمد. (١٩٨٩). في سيمياء الشعر القديم (المجلد ١). الدار البيضاء، المغرب: دار الثقافة.
- مفتاح، محمد. (١٩٩٢). تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص (المجلد ٣). الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
- نحلة، محمود أحمد. (٢٠١١). آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر (المجلد ١). القاهرة، مصر: مكتبة الآداب.